الباب الثاني

دراسة تاريخية - اجتماعية لكتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

الباب الثاني يدرس جوانب الكتاب التاريخية-الاجتماعية.

وهو في الأصل تلخيص لأبواب الكتاب كلها، فيه تمهيد وخمسة فصول يليها تحليل للكتاب:

التمهيد

الفصل الأول : العصر الجاهلي

الفصل الثاني : من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الثالث : العصر الإسلامي

الفصل الرابع : العصر الأوربي

الفصل الخامس : قيادة الإسلام للعالم

تحليل موجز للكتاب

التمهيد:

اسم الكتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

الكاتب: سماحة الشيخ ابوالحسن علي الندوي رحمه الله

تقديم للاستاذ سيد قطب.

مقدمة المؤلف سماحة الشيخ ابوالحسن علي الندوي رحمه الله.

مقدمة فضيلة/ أ.د. محمد يوسف موسى.

صورة وصفية بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي.

الصفحات: ٣٧٠

الطبعة الاولى: ١٩٥٠م.

ناشر الطبعة الاولى: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

مقدمة الأستاذ سيد قطب:

في المقدمة يتحدث الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله عن حاجة المسلمين لمن يرد إليهم ايمانهم بهذا الدين، ويوضح خصائص الاسلام التي تشعر المسلمين بالتبعة الملقاة على عاتقهم في قيادة البشرية، واخراجهم من الظلمات الى النور. ثم يتطرق الأستاذ الى تضمين هذا الكتاب لتلك المعاني بطريقة موضوعية مدعمة بالوقائع التاريخية. ويوضح رحمه الله كيف تناول الكاتب شكل العالم قبل الاسلام وقد سيطرت عليه روح الجاهلية، ودور الاسلام في حياة البشر وتخليصهم من هذه الجاهلية في الفترة التي كان يقود فيها، فالاسلام لا يستطيع أن يعمل الا وله القيادة لأنه عقيدة استعلاء، والفترة التي فقد فيها الاسلام الزمام نتيجة انحطاط المسلمين وتخليهم عن القيادة، واستعراض المؤلف لأسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية ورجوع البشرية الى حالة جديدة من الجاهلية. يشير الأستاذ الى هذا الكتاب كنموذج للتاريخ يجب أن نتناوله باستقلالية عن التأثر بالطريقة الأوربية التي ينقصها التناسق والعدالة والتحقيق والتي هي متحققة في هذا الكتاب.

ملخص تصديربقلم فضيلة الأستاذالدكتور محمد يوسف موسى:

يتحدث الأستاذ أن اتصال السماء بالأرض لأداء رسالة من الله في عليائه الى البشر لابد أن يكون لحاجة ملحة، وظهور الاسلام كان لأجل غايات وأسباب تستلزمه. ويقول الأستاذ أنه كتب في آخر نسخته ((إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الاسلام)).

يلخص الأستاذ وضع المسلمين بأننا أصبحنا مسلمين بالاسم والولادة والمكان الجغرافي فقط وأنه لا حاجة لنا أن نقنع أحد بأن يؤمن بهذا الدين اذا كنا لن نؤمن به فعلا قبله، وأن القدوة الطيبة تؤثر حتى في نفوس غير المسلمين وأن هذه القدوة كانت من الأسباب الرئيسية لفتوحات الاسلام الكبيرة. يؤكد الأستاذ أن الاسلام لا يصلح الا بما صلح به في الأمس بحيث نجعل كل جوانب حياتنا لا تقوم الا عليه.

مقدمة المؤلف/ الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي:

كان الإقبال عليه عظيماً تخطى قياس المؤلف ورجاءه، والطريف أنه كان كتاباً لا يسترعي اهتمام القراء إلا موضوعه، فلم يكن قد ظهر لمؤلفه كتاب آخر قبل هذا الكتاب في العالم العربي، ولم يعرفه الناس في هذه الأقطار . فكانت العناية بهذا الكتاب عناية خالصة مجردة للكتاب وللموضوع، ليس فيها نصيب لشخصية المؤلف وشهرته، ولا يُعلَّل هذا الإقبال النادر الذي حظي به الكتاب إلا بفضل الله تعالى ولطفه، وبعد ذلك بأنّ هذا الكتاب قد جاء في أوانه، وصادف رغبة غامضة واتجاهاً مبهماً في النفوس، وبأنه يتجاوب مع شعور كثير من المفكرين والمثقفين في العالم لعربي، ويلتقي مع أفكارهم وآرائهم ودراستهم.

مقدمة فضيلة/ أ.د. محمد يوسف موسى:

لقد أحس صديقنا الفاضل أبو الحسن ما نحسه جميعاً في حسرة بالغة ، وألم شديد، وهو ما ارتضته الدول الإسلامية لنفسها من السير في المؤخرة وراء العالم الغربي، تميل إلى ما يميل، وتقبل حكمه فيما يعرض له من شؤونها، وترضى ما يقره من (قيم) حسب موازينه الخاصة به. وكان من هذا أن فقد العربي- والمسلم بعامة- ثقته بنفسه وجنسه

ودينه ومعاييره، وقيمه العالية التي كان يحرص عليها أجداده وأسلافه الأماجد، ويحلونها من أنفسهم المكان العلي المرموق. وهذه علتنا التي يجب أن نطب لها، وفي ذلك تتركز مشكلتنا، أو مشاكلنا التي يجب علينا أن نجد الحل الناجع لها من صميم ديننا وتاريخنا وتراثنا الروحي العقلي الخالد، وإلى هذا كله نظر مؤلف كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، وإليه جميعه عنى نفسه وعمل جهده.

لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتاباً حوى من الخير ما - علم الله- حواه هذا الكتاب، ولا كتاب وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض، كما فعل هذا الكتاب، ولا كتاباً نفذ كاتبه إلى روح الإسلام، وأخلص ويخلص في الدعوة له، ويقف كل جهوده على هذا السبيل كهذا الكتاب. علينا إذاً أن نفيد من هذا الكتاب، ومن الوسائل التي يدعو مؤلفه الفاضل لاصطناعها، لنصل إلى النهضة المرجوة، والكرامة والمجد في هذه الحياة، وفي الحياة الأخرى.

الفصل الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول: الإنسانية في الاحتضار

- أطوار مظلمة مر بها العالم في القرنين السادس والسابع لميلاد المسيح، حيث الأمة المنحدرة وهابطة، نسي فيها الإنسان خالقه ومصيره ونفسه وفقد رشده.

أسباب ذلك:

١. خفت دعوة الأنبياء في هذا الزمن.

٢. انسحاب رجال الدين من ميدان الحياة إلى التعبد في الكنائس والخلوات.

٣. الذي بقي هم الملوك وأهل الدنيا بعدوانهم وآثامهم.

مظاهر هذه الأطوار:

١. أكل أموال الناس بالباطل على حساب الضعفاء والمحكومين.

٢. انحراف الراعي من انحراف الرعية.

{كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٢٥} وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ{٢٦} وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ{٢٧} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ{٢٨} فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ}.

العلاج:

١. لا بد من عملية جراحية تستأصل الشر وتنشر الخير،من خلال إحياء الربوبية.

{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

- انحطاط المسلمين وزوال دولتهم هو انحطاط رسالة وليس انحطاط شعب فحسب.

- يطرح الكاتب تساؤلات يجيب عليها في سياق باقي الكتاب:

١. ماذا خسر العالم من هذا الانحطاط للشعوب؟ وفيم كانت خسارته؟

٢. ما هو حال الأمم بعد تولي قيادتها الأوروبيين حتى خلفهم المسلمون وأسسوا دولتهم العظيمة؟ وما هي آثار هذا التحول؟

٣. كيف يكون الحال الآن لو نهض العالم الإسلامي من كبوته وامتلك زمام الحياة؟

إلى هنا.

- انحطاط المسلمين لا يشبه اندثار الأمم والإمبراطوريات السابقة التي ملكت حيناً من الدهر لأن عقيدتها لا تستوي مع عقيدة الإسلام العظيم الخالصة لان الإسلام جاء ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد اما باقي الأمم فهي مارست الظلم والدون واستعبدت الطوائف ونعمت وترفت.

نظرة في الأديان والأمم:

- الديانات العظمى أراجوز يتم التلاعب به، واصبحت مهود الحضارة والثقافة مسرح الفوضى والانحلال ففسدت الأمة لانها لا تملك مشروعاً صافياً من الدين السماوي.

المسيحية في القرن السادس المسيحي:

- الحضارة ومعالجة مسائل الإنسان لا تقوم على المسيحية.

الأسباب:

١. فيها اثارة من تعليم المسيح، عليها مسحة من دين التوحيد البسيط.

٢. جاء بولس فطمس نورها بخرافات وهرطقات الوثنية.

٣. قضى قسطنطين على البقية الباقية.

٤. اصبحت النصرانية (كوكتيل عقدي) من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والافلاطونية المصرية والرهابنية.

٥. أصبحت النصرانية خشبا لا يغذي الروح.

يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي: "وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر(١١)".

الحرب الأهلية الدينية في الدول الرومية:

- ثارت حول النصرانية جدالات عقيمة كلامية وسفسطية استهلكت مدخرات الأمة.
- تحولت إلى حروب طاحنة تنافست فيها الدول ونشبت حروب اهلية مثل:

١. القرن السادس والسابع وما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ونصارى مصر.

يقول الدكتور ألفرد . ج . بتلر:

"إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين، نضال يذكيه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس، إذ كانت علة العلل في ذلك الوقت تلك بين الملكانية والمنوفيسية، وكانت الطائفة الأولى – كما يدل عليها اسمها – حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة، وهي ازدواج طبيعة المسيح، على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط المنوفيسيين – أهل مصر – كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها، وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون، بلة يؤمنون بالإنجيل".

٢. حاول هرقل بعد انتصاره على الفرس جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها وصار وفاق على ذلك ولكنه فشل لأن القبط نابذوه العداء وصمدوا واستماتوا مقابله ووقعت عواصف واضطهادات مهولة وعظيمة وخربت

الدنيا وانقلبت رأسا على عقب بسبب تناحة رأس هرقل وتياسة رؤوس الاقباط استمر لعشرات السنين.

الانحلال الاجتماعي والقلق الاقتصادي:

بلغ ذروته في الدولة الرومية والشرقية للأسباب التالية:

- تصاعد الاتاوات والضرائب والعربدة والانفلات الأمني والأخلاقي.
- تذمر أهل البلاد من الحكومات.
- ممارسة الإيجارات والصادرات ضد الشعوب.
- حدثت اضرابات وثورات عظيمة هلك فيها عام ٥٣٢ عشرات الآلاف وماتوا (فطيس).
- ذابت أسس الفضيلة ودعائم الأخلاق حتى صاروا يفضلون (العزوبة) على (الحياة الزوجية)، يقول (جيبون): "وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة. وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بَظلها الوارف. ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً". ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين): "إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان".

مصر في عصر الدولة الرومية ديانة واقتصاداً:

- كانت من أشقى البلاد في القرن السابع تحت ظلال (النصرانية) مع سيطرة (الدولة الرومانية)، مظاهره:

- خلافات عقائدية أنهكت القوى وأضعفت النفوس وأشعلت الاضطرابات والاستبداد وكان أمن الدولة عفواً. (التفتيش الديني) قد تدخل في كل صغيرة وكبيرة وشاردة وواردة بحيث جعل مصر لا تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية ولا حتى الدينية أو العقلية تماما كما يحدث اليوم بل ما يجري هو أفظع وأنكى وأشد من الماضي.

ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب):

"ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية. ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن. وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم. وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين".

- في ذلك الوقت كانت مصر ذات أهمية استراتيجية واقتصادية للدولة الرومانية البيزنطية.

الحبشة(السودان حالياً):

- كانت على المذهب (المونوفيسي) تعبد الأوثان والأصنام وعاشت في الهمجية المتخلفة تابعة للكرسي الاسكندري(الكُندري)(الجزموي).

الأمم الأوروبية الشمالية الغربية:

فكانت تتسكع في ظلام الجهل المطبق، والأمية الفاشية، والحروب الدامية، وكانت بمعزل عن الحضارة، وكانت بين نصرانية وليدة، ووثنية شائبة، ولم تكن بذات رسالة في الدين، ولا بذات راية في السياسة.

اليهود:

هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه، ولم يكونوا من عوامل الحضارة والسياسة.

وكان مما أورثهم طريقهم الخاص ومما تفردوا به من أمم الأرض:

- العبودية الطويلة، الاضطهاد الفظيـــع والكبرياء والقومية.
- الإدلال بالنسب.
- الجشع وشهوة المال وتعاطي الربا.

خصائصهم الخلقية التي عرفوا بها:

- الخنوع عند الضعف.
- البطش وسوء السيرة عند الغلبة.
- الختل والنفاق في عأمة الأحوال.
- الأثرة وأكل أموال الناس بالباطل.
- الصد عن سبيل الله.

أعاذنا الله من بطشهم وأراحنا من شرهم.

بين اليهود والمسيحيين:

الأهم: هو أنه تجدد الحرب بين اليهود والمسيحين، ومما كان فيه من الأحداث:

- إرسال ملك الفرس كسرى جيوشه لبلاد الشـــام ومصر ليقاتلوا النصارى ودمروا الكنائس في بيت المقدس وعأمة في بلاد الشام كلها، ثم بعد نجاحهم في المعركة تحركوا نحو مصر فساعدهم اليهود في ذلك وانتصروا في تحالفهم مع الفرس ضد النصارى.

وهنا انتصار النصارى على الفرس واليهود:

- قام هرقل ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد

ما خربها الفرس، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة طلبوا منهم أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً، فساءه ذلك وتوجع له، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم من آخرهم، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا له ذلك فاحتج عليه بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى.

إيران والحركات الهدامة فيها:

- كان أساس الأخلاق متزعزعاً مضطرباً منذ عهد قديم.
- كانوا يصدقون عادة بالزواج بالمحرمات.
- ظهور "ماني" فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، فحرَّم النكاح استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل.
- ثوران روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة، وتقمصت دعوة (مزدك) فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم.

تقديس الأكاسرة(ملوك الفرس):

- كان يصيبهم الهوس بأن الدم الإلهي يجري في عروقهم ،وكانوا يستحقرون الناس ويستعبدونهم ويمارسون الذل إزاءهم.

كانت الأكاسرة ملوك فارس يدَّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس إليهم كآلهة ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج، وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر وأباً عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعي نذل.

التفاوت بين الطبقات:

يقول البروفسور أرتهرسين مؤلف تاريخ (إيران في عهد الساسانيين):

"كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع".

تمجيد القومية الفارسية:

كانوا يرون أن القومية الفارسية أخصها الله بخصائص و منح لم توهب لغيرهم من الأمم و هذا ما جعلهم ينظرون إلى غيرهم من الأمم بنظرة ازدراء و احتقار.

عبادة النار و تأثيرها في الحياة: قال زارداشت صاحب الديانة الفارسية: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق و يلتهب في الكون. فأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار وساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء، وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع

مختلفة فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة.

الصين ديانات:

وكانت تسود الصين في هذا القرن ثلاث ديانات هي:

ديانة "لا وتسو" تحولت وثنية و كانت تُعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وديانة "كونفوشيوس" كانت تعنى بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية و كذلك الديانة البوذية.

البوذية – تطوراتها وانحطاطها:

تحولت البوذية وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت و وصلت هذه الديانة إلى أسفل درجات الانحطاط حيث اندمجت في البرهيمة وذابت فيها وظل وجود الإله والإيمان به موضع خلاف وشك.

أمم آسيا الوسطى:

كانت أمم آسيا الوسطى وفي الشرق، كالمغول والترك واليابانيين، تعيش بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية.

الهند: ديانة، واجتماعاً، وأخلاقاً

مع ان كل العالم كان يعيش في الانحطاط في القرن السادس الميلادي إلا أن الهند كانت أكثر دولة به انحطاط ديني وخلقي واجتماعي وقد تميزت بـــ:

١. كثرة الآلهة و المعبودات: انتشر في هذه الفترة ٣٣٠ مليون آلهة و قد عكف الكل من الملوك والصعاليك على عبادة الاصنام.

٢. انتشار الشهوة الجنسية الجامحة :تميزت ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم بالشهوة لدرجة أنهم نسبوا ذلك إلى الآلهة فتناقلوا روايات و قصص عن علاقات الآلهة و اختلاط الجنسين فيها.

٣. التفاوت المجحف و نظام الطبقات الجائر: كانت الهند من أشد الأمم التي تعاملت بالنظام الطبقي سواء دينيا أو مدنيا وقسم أهل البلاد إلى أربع طبقات: ١- البراهمة و هم طبقة الكهنة و رجال الدين ٢- شتري و هم رجال الحرب ٣- ويش و هم رجال الزراعة و التجارة ٤- شودر و هم رجال الخدمة.

مركز المرأة في المجتمع الهندي:

كانت النساء في هذا المجتمع الهندي مثل الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج فإذا مات زوجها صارت كالموءودة.

العرب: خصائصهم ومواهبهم:

كان العرب يمتازون بأخلاق ومواهب لم تكن لغيرهم كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصراحة في القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة .

في هذا العصر أصيب العرب بانحطاط ديني شديد و وثنية سخيفة بسبب عصرهم عن النبوة و تمسكهم بدين الآباء و الأجداد.

وثنية الجاهلية:

كان الشرك هو العقيدة السائدة عند العرب كانوا يعتقدون بوجود الله وأنه الإله الأعظم، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} لكن كانوا يشركون في الدعاء له حيث كانوا يعتقدون ان الله لا يستجيب إلى دعاءهم إلا من خلال واسطة وشفاعة ثم ازداد حالهم سوءا ليشركوا مع الله إلها آخر.

أصنام العرب في الجاهلية:

انغمس العرب في الوثنية وعبادة الأصنام، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

الآلهة عند العرب:

كان العرب يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فاتخذوهم شفعاء لهم عند الله يعبدونهم ويتوسلون بهم عند الله، ومنهم من اتخذ الجن شركاء لله.

اليهودية والنصرانية في بلاد العرب:

انتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب، ولم تستفد منها العرب كثيراً من المعاني الدينية، وكانتا نسختين من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام قد طرأ عليها التحريف والزيغ والوهن.

الرسالة والإيمان بالبعث:

رسم العرب في مخيلتهم صورا خيالية للنبي المنتظر وتمثلوه في ذات قدسية، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشي في الأسواق و كان تفكيرهم المحدود وعقولهم الضيقة لا تستوعب وجود بعث وحياة أخرى بعد الحياة الدنيا قالوا: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} وقالوا: {أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً}.

الأدواء الخلقية والاجتماعية:

- شرب الخمر وكان واسع الشيوع!
- حوانيت الخمارين كانت مفتوحة يرفرف عليها اسم (غاية)
- أصبحت كلمة تجارة مرادفة لـ(بيع الخمر).
- القمار من مفاخر الحياة الجاهلية! وعدم المشاركة فيه من العار!.
- رسخ الربا فيها وجرى فيهم مجرى الأمور الطبيعية.
- لم يكن الزنا نادراً وغير مستنكر.

المرأة في المجتمع الجاهلي:

كانت المرأة عند العرب في عصر الجاهلية تعيش من دون حقوق فأكلت حقوقها وابتزت أموالها وحرمت إرثها وعضلت بعد الطلاق أو وفاة الزوج إن تنكح زوجا ترضاه وبلغت القسوة بها إلى وأدها وقتلها.

العصبية القبلية والدموية في العرب:

- كانت شديدة جامحة أساسها هذه الجملة (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).
- التفاوت الطبقي بين مسلمات المجتمع العربي.
- الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية، حتى صار الحرب مسلاة وملهى.
- كانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين فقد اندلعت حروب بينهم ودامت سنين فأريقت فيها دماء غزيرة وقتل الآف من الناس لأسباب تافهة مثلما حدث بين بكر وتغلب ابني وائل وبين داحس والغبراء.

ظهر الفساد في البر والبحر:

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء.

لمعات في الظلام:

وكان النور الضعيف الذي يتراءى في هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحباحب الذي يضيء في ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام، ولا ينير السبيل، وكان الذي يخرج في ارتياد العلم الصحيح، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه في البلاد، ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى يأوي إلى رجال شواذ في الأمم والبلاد، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة، هشمها الطوفان، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينيين في القرن السادس الذي

شرق وغرب في الفحص عنهم، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل، ومن الموصل إلى نُصيبين، ومن نصيبين إلى عمورية، ويوصي به بعضهم إلى بعض، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامساً، وأدركه الإسلام في هذا الظلام.

الفصل الثاني: النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي.

الملكية المطلقة:

حكم جائر مستبد، مثاله:

- الحكم في الصين.
- المملكة الرومانية.

كان الحكم السائد في العصر الجاهلي حكما جائرا مستبدا ذات ملكية مطلقة تقوم في بعض الأحيان على تقديس البيوتات الخاصة فمثلا في فارس كان الرعايا يعتقدون أن ملك آل ساسان مستمد من الله ولا ينازعهم فيه أحد وفي أحيان أخرى تقوم على تقديس الملوك كالصينيين الذين كانوا يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء وكانوا يعتبرونه كالأب الوحيد للأمة، له أن يفعل ما يشاء، وكانوا يقولون له: "أنت أبو الأمة وأمها" وأحيانا أخرى تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية، فكان المبدأ الأساسي هو تقديس الوطن الرومي، والشعب الرومي. ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقاً يجري منها الدم إلى مركزها.

الحكم الروماني في مصر والشام:

في مصر: لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين.

في الشام: بادئ ذي بدء عادلـــــة حسنة، ولما شاخت انقلبت إلى أتعس ماكانت من الرق والعبوديـــة.

حكم الرومان {٧٠٠ سنة} {نزاع وشقاق واستبداد وأنانية وقتل للأنفس}

حكم اليونان {٣٦٩ سنة} {الحروب الطاحنة والمظالم}.

كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة في حكم الأجانب، وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى في مراكز الدولة وعواصمها.

يقول الدكتور الفرد. ج. بتلر عن الحكم الروماني في مصر:

"إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم".

ويقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشام:

"كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رُومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبنائهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام".

نظام الجباية والخراج في إيران:

كان النظام المالي والسياسة المالية في إيران جائر ومضطرب بل كان تابعا لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية.

كنوز الملوك ومدخراتهم: كانت ايران لا تنفق الشيء الكثير على الرعية وإنما اعتاد ملوكها منذ القديم اكتناز النقود وادخار الأشياء الغالية.

الفصل الشاسع بين طبقات المجتمع:

كان معظم الرعايا يعيشون في الفقر والقلة واقتصرت الثروة في يد أقلية من الأفراد كما أن المناصب كانت تابعة في توزيعها إلى الثروة والجاه والنفوذ عند الحكام.

الفلاحون في إيران: أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية وهذا ما أدى إلى تفشي البطالة والجنايات وطرق غير شرعية للكسب.

الاضطهاد والاستبداد:

اضطهد اليوم في الشام والعراق واليعقوبيون في مصر اضطهاداً كبيراً، واستبد الحكام استبداداً شديداً، وعاثوا في البلاد والدماء والأموال والأعراض حتى صار الناس يفضلون الموت على العيش في هذه الحياة.

المدنية المصطنعة والحياة المترفة:

استحوذت على الناس في الدولتين- الفارسية والرومية- حياة الترف والبذخ وطغى عليهم بحر المدينة المصطنعة والحياة المزورة وغرقوا فيه إلى أذقانهم. يقول مكاريوس:

"لم يروا في التاريخ أن ملكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى ولما خرجوا من العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يدرى ما قيمته".

وكان نفس الحال في الشام في الدولة الرومية فكانوا يعيشون في البذخ والترفه في دقائق المدنية، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم في الشام بذخاً عظيماً.

وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة بن الأيهم الغساني فقال: لقد رأيت عشر قيان، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب وأتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المندّي إن كان شاتياً، وإن صائفاً بطن بالثلج وأتي هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه.

الزيادة الباهظة في الضرائب:

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبيعية الزيادة الباهظة في الضرائب، وسن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق وأثقلت كاهل الأهلين وانقضت ظهرهم.

شقاء الجمهور:

اصبح في كلتا المملكتين الرومية والفرسية طبقتين متميزتين تمام التمييز:

١. طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكي وأسرهم وعشائرهم والمتصلون بهم والأغنياء، فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين، ويتقلبون في أعطاف النعيم، وينعلون أفراسهم عسجداً، ويكسون بيوتهم حريراً وسندساً.
٢. طبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال، كانوا في جهد من العيش يرزخون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون في القيود والأغلال ويعيشون عيش البهائم.

بين غنى مطغ وفقر منس:

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء ، والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية في العالم المتمدن المعمور بين غنى مطغ وفقر منس، وأصبح الغني في شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير في الموت وما بعده بنعيمه وترفه، وأصبح الفلاح أو العامل في شغل عن الدين كذلك لهمومه وأحزانه وتكاليف حياته، وأصبحت الحياة ومطالبها همَّ الغني والفقير وشغلهما الشاغل.

تصوير الجاهلية: وقد صور أحد كبار علماء الإسلام هذه الحال فأجاد التصوير، قال:

"اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن وحمام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجمل في الملابس وذكر ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرحاء لها، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في

الحاجات، ثم لا تترك ساعة من الغناء، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه".

الفصل الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول: منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير.

العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم: بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد، فإن كل شيء فيه في غير محله، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر، ومنه ما تكدس وتكوم.

نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته، فلم تعد تسيغ البديهيات، وتعقل الجليات، وفسد نظام فكره، فإذا النظري عنده بديهي وبالعكس وفسد ذوقه فصار يستحلي المر ويستطيب الخبيث.

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظيا، والصالح محروماً شقياً لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف، ولا أعرف من المنكر.

رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال.

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً، ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح، فعادت وبالا على أصحابها وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والجواد تبذيراً وإسرافاً، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء شطارة وخديعة.

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق، ينتفع بها في هيكل الحضارة، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة.

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه.

نواحي الحياة الفاسدة:

إن كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعي اهتمام المصلح وتشغل باله، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها، وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع ويعانيه.

وكل داء من أدواء المجتمع الإنساني وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب إصلاحه حياة كاملة، ويستغرق عمر إنسان بطوله، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول.

لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً: وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحاً إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم رجلاً إقليمياً وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية، ويكوّن إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها.

وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة سياسي وكفاية إداري وعزيمة عصامي وابتكار عبقري، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد.

لم يبعث لينسخ باطلا بباطل:

ولكنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل ويبدل عدواناً بعدوان، ويحرم شيئاً في مكان ويحله في مكان آخر، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى، لم يبعث زعيما وطنياً أو قائداً سياسياً، يجر النار إلى قرصه ويصغي الإناء إلى شقه، ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان. وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنساني، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافي واستقلالها السياسي خير مركز لرسالته.

قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها:

لم يكن صلى الله عليه وسلم من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسللون إليها من نوافذها.

إنما أتى صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والإصلاح من بابه، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه فدعا الناس إلى الإيمان بالله وحده، ورفض الأوثان والعبادات والكفر وقام في القوم ينادي: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" ودعاهم إلى الإيمان برسالته، والإيمان بالآخرة.

الفصل الثاني: رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

دفاع الجاهلية عن نفسها: أدرك المجتمع الجاهلي عندما قرع أسماعهم صوت النبي صلى الله عليه وسلم أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدَّد إلى كبد

الجاهلية ونعي لها، فقامت قيأمة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير، وقاتلت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت {وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} ووجد كل ركنٍ من أركان هذه الحياة ومن أثافي الجاهلية نفسه مهدداً وحياته منذرة، وهنا أعاد التاريخ نفسه في الاضطهاد والتعذيب فثبت الرسول صلى الله عليه وسلم ثبوت الجبال الراسيات لا يثنيه أذى، ولا يلويه كيد ولا يغريه مال أو منصب وكان يقول لعمه "يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه".

في سبيل الدين الجديد:

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالته واليوم الآخر في العلن فكان لا يلين ولا يستكين ولا يحابي ولا يداهن فقامت كل قريش ضده ورمته بقوس واحدة وأضرموا البلاد عليه ناراً ومنعوا عنه أولادهم وإخوانهم و اباءهم فتقدم اليه فتية من قريش هانت عليهم انفسهم و اعتزموا ان يقتحمو النيران لأجله كان همهم الآخرة و بغيتهم الجنة فوضعوا أيديهم في يديه، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه.

التربية الدينية:

كان والرسول صلى الله عليه وسلم يغذّي أرواح اصحابه بالقرآن ويربي نفوسهم بالإيمان ويخضعهم لله خمس مرات في اليوم ببدن طاهر وقلب خاشع وجسم خاضع. فحررهم من سلطان الشهوات وعلمهم الصبر على الاذى والمنكرات وبين لهم الصفح والعفو عن الاخطاء والزلات.

في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم:

اجتمع أهل مكة بأهل يثرب لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد. فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ وكان الأوس والخزرج لا تزال سيوفهم تقطر دماً فألّف

الإسلام بين قلوبهم ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين المهاجرين فكانت أخوة تزري بأخوة الأشقاء. وتبذ كل ما روي في التاريخ من خلة الأخلاء قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: {إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}.

كان ظهور هذه الجماعة الوليدة – المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار – بداية نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس وكان ظهورها في هذا الوقت العصيب وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده.

انحلت العقدة الكبرى:

ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة. ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكي جمرة قلوبهم. ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل المرضاة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم وفقهاً في الدين ومحاسبة للنفس. و كانوا قد خرجوا مع الرسول للقتال فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم وانحلت العقدة الكبرى – عقدة الشرك والكفر – فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي. وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى- فكان النصر حليفه في كل معركة.

أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر:

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر كان غريبا في كل شيء في سرعته و في عمقه في سعته وشموله.

تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول:

كان الناس – عرباً وعجماً – يعيشون حياة جاهلية، يسجلون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصي بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ليس لها سلطان أو تأثير.

فانتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها.

وخز الضمير:

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها فكان إذا سقط الإنسان سقطة لم يراقبه فيها أحد و لم يره فيها بشر تحول هذا الإيمان نفساً لوّأمة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة. وقد حدثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا في التاريخ الإسلامي الديني فمنها ما روى مسام ابن الحجاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي، أتى رسول صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول اله إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني" فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: "يا رسول الله إني قد زنيت" فرده الثانية، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه فقال: أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرُجم.

الثبات إمام المطامع والشهوات:

كان الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته يملك نفسه إمام الشهوات الجارفة وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره، وهذا نتيجة رسوخ الإيمان واستحضار عظمة الله والخشية منه.

الأنفة وكبر النفس:

رفع هذا الإيمان رأس المسلمين عاليا وأقام صفحة عنقهم فلن تُحنى لغير الله أبداً لا لملك جبار ولا لحبر من الأحبار ولا لرئيس ديني ولا دنيوي.

عن أبي موسى قال: انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك. فقال جعفر: لا نسجد إلا لله.

الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء:

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي والحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعلى تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم زل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقالوا له:

ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة: بعث الإيمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنيناً غريباً إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي عين، فطاروا إليها طيران حمام الزاجل الذي لا يلوي على شيء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: قوموا إلى الجنة عرضها السموات والأرض؟ فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض. قال: نعم، قال: بخ بخ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن يكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

من الأنانية إلى العبودية:

كان الناس قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع يسيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهي، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ولما كان القوم يحسنون اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها، وعرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة، وعرفوا أنه خروج من حياة إلى حياة، ومن مملكة إلى مملكة، ومن حكم إلى حكم، أو من فوضوية إلى سلطة، أو من حرب إلى استسلام وخضوع، ومن الأنانية إلى العبودية.

المحكمات والبينات في الإلهيات:

كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره و منحوهم مبادئ ثابتة ومحكمات هي أساس المدنية الفاضلة، والحياة السعيدة في كل زمان ومكان لكن الناس لم يشكروا و ينتهوا فبدأوا البحث في مناطق مجهولة من دون مرشد أو دليل فمازادوا إلا ضلالا و ما كسبوا إلا التعب والمشقة.

أما الصحابة رضي الله عنهم فكانوا سعداء موفقين جداً، إذ عوّلوا في ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكفوا المؤونة وسعدوا بالثمرة، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم في غير جهاد، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعُروة الوثقى، وأخذوا في الدين بلب اللباب.

الفصل الثالث: المجتمع الإسلامي

طاقة زهر:

كان الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة، ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها. أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان".

ليس منا من دعا إلى عصبية:

اقتلع صلى الله عليه وسلم الجاهلية من جذورها، وحسم مادتها، وسد كل نافذة من نوافذها، فقال: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية".

كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته:

صارت الطبقات متساوية والأجناس في المجتمع الإسلامي متعاونة متعاضدة لا يبغى بعضها على بعض، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وأصبح كل واحد في المجتمع راعياً ومسئولاً عن رعيته.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

أصبح المسلمون أعواناً على الحق، أمرهم شورى بينهم، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم وأصبح شعار الحكم: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وأصبحت الأموال والخزائن التي كانت طعمة للملوك والأمراء ودولة الأغنياء مال الله الذي لا ينفق إلا في وجهه ولا يخرج إلا في حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه.

حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع:

كان المجتمع البشري قد فقد نشاطه في الحياة وكان مجتمعاً مرهقاً مخنوقاً، فكان مدفوعاً إلى الحروب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض الحكام. كان الناس لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة فكانوا مرغمين على أن يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ليفك قيد هذا المجتمع المأسور فاستولى منه على الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين فانجذبت إليه النفوس وعشقته القلوب وأحبه رجال أمته وأطاعوه حباً وطاعة لم يسمع بمثلهما في تاريخ العشاق والمتيمين.

نوادر الحب والتفاني:

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً هو بحمد الله كما تحبين! قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.

رفعوا خبيبا رضي الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه: أتحب أن محمدا مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه. فضحكوا منه.

قدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني، قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس.

عجائب الانقياد والطاعة:

كان الانقياد والطاعة من جنود "الحب" المتطوعة، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قواهم.

قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر: "إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه أمر فأمرنا تبع لأمرك، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك".

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهي عن الخمر في مجلس شرب، فعن أبي بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً إذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} – إلى قوله: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}. قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا. انتهينا ربنا.

الفصل الرابع: كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة.

أعاد للبشرية روحها و اشعل مواهبها فكأنما كان هذا الإنسان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملي على العالم إرادته وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ}.

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ.

فعمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب فاجأ العالم بعبقريته وعصاميته، دحر كسرى وقيصر عن عروشهما وأسس دولة إسلامية تتفوق في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

أو ابن الوليد الذي كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحربية في نطاق محلّيٍ ضيق يستعان به في المعارك القبلية، إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم

له شيء إلا حصده، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكراً خالداً في التاريخ.

وأبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقي عليها الوداع ويقول: سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده.

وعمرو بن العاص كان يُعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة.

وعلي بن أبي طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق الحكمة على لسانهم.

كتلة بشرية متزنة:

ما لبث العالم ان راى هذه المواد الخام المهملة تتفجر وتتحول إلى عجائب التاريخ. ما لبث ان رأى منها كتلة لم يشهد التاريخ مثلها في اتزانها، كتلة هي في غنى عن العالم، وليس العالم في غنى عنها. أسست حكومة تمتد على طول قارتين عظيمتين، وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة.

لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، أصاب الجاهلية في مقتلها أو صميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً ويفتتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ.

الفصل الثالث

العصر الإسلامي

الفصل الأول: عهد القيادة الإسلامية

الأئمة المسلمون وخصائصهم:

توفر المسلمون على خصائص وصفات أهلتهم لتزعم العالم وقيادته ومن هذه الصفات:

- أنهم أصحاب شريعة إلهية منزلة.
- تلقوا تربيتهم الخلقية على يد الرسول صلى الله عليه وسلم.
- لم يكونوا في خدمة جنس دون غيره او شعب دون سواه وإنما في خدمة البشرية جمعاء.
- جمعوا الإنسانية بجميع نواحيها فامتازوا بالجمع بين الدين والأخلاق والقوة والسياسة.

دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة:

لعبت الخلافة الراشدة دورا مهما ومميزا شمل جميع نواحي الحياة فقد شكلت حكومة تميزت بالقوة السياسية والمادية في عصرها، سادتها الأخلاق الفاضلة التي كانت تحكم الناس والنظام. وقد شهد لهم بذلك العدو قبل الصديق فقال أحد الروم في وصفه للمسلمين: "هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه".

تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العأمة:

كان الرعيل الأول من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ممن تلقوا تربية مباشرة على يديه من خيرة الحكام فلم ينظروا للحكم على أنه خزائن و خيرات و إنما على أنه أمانة و مسؤولية يحاسبون عليها إمام الله فساروا بخطى سديدة وغاية رشيدة.

المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري:

كان للمدنية الإسلامية تاثير كبير على جميع البشر فقد كانت مدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الاساس تسودها التقوى والأمانة وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة على المال والجاه فشربت الأمم من أخلاقها، واقتبست من تشريعاتها، وغيرت في اتجاهاتها من الوثنية إلى التوحيد ومن اسعباد المرأة إلى احترامها ومنحها حقوقها ومن التمييز الطبقي إلى العدل بين طبقات البشر.

الفصل الثاني: الانحطاط في الحياة الإسلامية

الحد الفاصل بين العصرين:

لو أردنا تحديد الحد الفاصل بين عصر النهضة الإسلامية و عصر الانحطاط الإسلامي لوجدنا أن هذا الحد هو عند انتقال الأمة من الخلافة الراشدة إلى الاستيلاء على الملك و توريثه.

نظرة في أسباب نهضة الإسلام:

ترجع أسباب النهضة الإسلامية إلى الجيل الأول الذي عاش مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتخرج من مدرسته وتربى على يديه ونهل من علمه فكان الواحد منهم تراه الإمام والقاضي والأمين على أموال المسلمين والأمير والحاكم وقائد الجيش وهو في نفس الوقت الزاهد العابد والتقي النقي والعالم الفقيه والمجاهد

الصنديد، لا يفرق بين الدين والسياسة ولا يغلب مصالحه على مبادئه ولا يتخلى عن أخلاقه لصالح أهوائه واغراضه.

شروط الزعامة الإسلامية:

يمكن جمعها في كلمتين:

الجهاد: ويبذل فيه النفس والنفيس والغالي والرخيص لإعلاء كلمة الله وتنفيذ الشريعة التي جاء بها الأنبياء.

الاجتهاد: و هو تمكن الحاكم المسلم في جميع الميادين الدينية و السياسية.

انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الأكفاء:

من أسباب الانحطاط الذي ألم بالعالم الإسلامي هو انتقال الحكم إلى رجال غير أكفاء لا دينيا ولا أخلاقيا ولا سياسيا.

تحريفات الحياة الإسلامية:

و من مظاهر هذه التحريفات:

فصل الدين عن السياسة (أو ما يسمى حاليا العلمانية):

فصل الدين عن السياسة فابتعد العلماء والفقهاء عن المجالس واستبد الحكام بالحكم فعاد عصر الجاهلية لكن في ثوب جديد.

النزعات الجاهلية في رجال الحكومة:

بعد زوال رقابة الدين والأخلاق رجعت الجاهلية في أبهى حللها ورفعت رأسها في بلاد الإسلام فانتشر الأخلاق المنحطة وانغمس الناس في الشهوات والملذات وغرقوا في اللهو والملاهي.

سوء تمثيلهم للإسلام:

مع أن هؤلاء كانوا لا يمثلون إلا انفسهم وسياستهم ولا يمثلون الإسلام لا من قريب ولا من بعيد إلا أنه وبسبب تلك التصرفات خف تأثير الإسلام في قلوب غير المسلمين وضعفت ثقتهم به.

قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة:

مع أن الله أغنى المسلمين وكفاهم عن البحث والتنقيب في علوم ذات الله وصفاته بأن أنزل اليهم البينات والفرقان إلا انهم ظلوا زمنا طويلا يضيعون جهدهم وتفكيرهم في هذه الفلسفة المستمدة أصلا من الفلسفة اليونانية فضيعوا الاهتمام بالعلوم التجريبية والطبيعية التي كانت السبب الأول في نهضة أروربا وتخلف المسلمين.

الضلالات والبدع:

انتشرت البدع والخرافات والجهل والضلالة وكادت تحجب صورة الإسلام المشرقة الذي جاء بالتوحيد.

إنكار الدين على المسلمين وإهابته بهم:

رغم كل هذه المحن التي تعرض لها العالم الإسلامي إلا أنه كان هناك بصيص من الأمل فالقرآن تعهد الله بحفظه من التحريف والتبديل فظل للإسلام هيبة لدى المسلمين، وظل نوره يضيء الدروب ففي كل ناحية وفي كل زاوية كان هناك رجال يثرورون على الجهل و الضلالة فيجددون للأمة دينها وينفخون فيها روح الجهاد ويفتحون لها باب الاجتهاد.

حسن بلاء العالم الإسلامي في القرن السادس:

نتيجة الضعف والانحطاط الذي مر به العالم الإسلامي بدأ الصليبيون يفكرون في الاستيلاء على الأماكن الإسلامية المقدسة فاستولوا على القدس و معظم مدن

الشام وفتحت شهيتهم للمزيد فكان الخطر يتهدد مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسخر الله للإسلام رجالا يدافعون عنه ويذودون عن مقدساته وهيأ الله صلاح الدين لهذه المهمة ففتح القدس و استرد فلسطين و أعلى شأن الأمة عاليا.

فقر القيادة في العالم الإسلامي بعد صلاح الدين:

بعد موت صلاح الدين عادت شهية الصليبيين لتفتح مرة أخرى خاصة وأن المسلمين كانوا في أضعف مراحلهم نتيجة الانقسام و التطاحن فيما بينهم فلم يرزق العالم الإسلامي بعد صلاح الدين بقائد مخلص يحفظ الإسلام و يقود المسلمين.

نتائج القرون المنحلة:

رغم ان الإسلام كان يدور في فلك الانحطاط إلا أنه كان بين فترة وأخرى يظهر رجال مخلصون على شاكلة الصحابة والسلف الصالح ورغم انحراف المسلمين وابتعادهم عن الطريق المستقيم إلا أنهم كانوا أقرب إلى الله من أمم أخرى و كانوا يشكلون قوة يهابها كل العالم.

انهيار صرح القوة الإسلامية:

ظل سوس الضعف والوهن ينخر في جسد الأمة إلى أن سقطت آخر مملكة إسلامية على يد التاتار والمغول.

الفصل الثالث : دور القيادة العثمانية

العثمانيون على مسرح التاريخ:

ظهر الترك على الساحة بفتح محمد الثاني للقسطنطينية التي ظل يحأول المسلمين فتحها ثمانية قرون فدلل تفوقهم العسكري وقيادتهم المميزة كما حظوا بثقة المسلمين.

تفوق محمد الفاتح في فن الحرب:

أعطى محمد الفاتح درسا في فنون الحرب في فتح القسطنطينية مستخدما أحدث الوسائل والمدافع آنذاك.

مزايا الشعب التركي:

تزعم الشعب التركي المسلمين آنذاك بقيادة آل عثمان بعدة خصائص:

أولا: شعبا طموحا مجاهدا أقرب إلى الفطرة.

ثانيا: أجادوا صناعة الحرب وأعدوا قوة برية وبحرية هائلة وبسطوا نفوذهم على بقعة كبيرة جدا من الأرض حتى كانت أوروبا وملوكها تعمل لهم ألف حساب.

ثالثا: كانوا في مكان إستراتيجي يشرف على آسيا وأوروبا.

انحطاط الأتراك في الأخلاق وجمودهم في العلم وصناعة الحرب:

ولكن للأسف أصيب الأتراك بداء من قبلهم استعلاء الملوك وظلمهم وخلود الشعب إلى الاستكانة والراحة وترك الإعداد والبحث عن التقدم العلمي والحربي.

الجمود العلمي في تركيا:

لم يحاول الأتراك مجاراة أوروبا في تقدمها العلمي بل أصابهم الجمود وابتعدوا عن البحث والابتكار وأصبحت علومهم وتعليمهم قديما ومتحجرا في حين تخلصت أوروبا من الجمود بعد معارك دموية بين الدين والعلم واستسلمت الكنيسة النصرانية واضطرت لإدخال العلم في مدارسها.

الانحطاط الفكري والعلمي العام:

لم يتوقف الجمود العلمي على الأتراك بل شمل معظم العالم الإسلامي حتى أنه من النادر أن ترى كتابا ذا قيمة صدر في تلك الفترة.

معاصرو العثمانيين في الشرق:

عاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان هما الدولة المغولية والدولة الصفوية الشيعية ولكن ثقافة التكتلات كانت مفقودة عندهم فانشغلت كل واحدة بنفسها.

نهضة أوروبا الجاهلية وسيرها الحثيث في علوم الطبيعة والصناعات:

نهض الأوربيين من سباتهم الطويل لينهلوا بعد جوع من كل ألوان العلوم والفنون وبرز عندهم أسماء كثيرة لعلماء ومكتشفين.

تخلف المسلمين في مرافق الحياة:

ضيع المسلمين أحقابا في الجمود العلمي في حين كانت أوروبا تستغل كل ثانية.

تخلفهم في صناعة الحرب:

حاول بعض القادة الأتراك إدخال تحسينات على الجيش ولكن التعود على الجمود وتقدم أوروبا السريع أجهض تلك المحاولات.

الفصل الرابع

العصر الأوربي

الفصل الأول: أوروبا المادية

طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها:

كانت الحضارة الأوربية لها جذور وهي الحضارتان اليونانية والرومانية قامت على أنقاضهما واستمدت الكثير من فلسفتهما.

خصائص الحضارة الإغريقية:

من أخصب الحضارات بالعقول وكان بها أنغب العلماء، وإن كان من أبرز خصائصها أنها تغلب عليها المادية وقلة الدين والخشوع فلم يعرف دين به كل هذه الأفراح والألعاب مثل دينهم وتحمس أدبائها ومؤلفيها للحرية الشخصية الجامحة التي لاتقف عند حد فانتشرت فوضى أخلاقية كبيرة وتمردا على أي نظام، كما كانت الوطنية وحب الوطن تتقدم على أي أخلاق وأي عقيدة.

خصائص الحضارة الرومية:

خلفت الحضارة الإغريقية وتفوقت عليها في الجندية والتنظيم ولكن الحضارة الإغريقية ظلت متفوقة في العلوم والفلسفة فتأثرت بها الحضارة الرومية وظلت تقتات على موائدها علومها وأدابها بالاضافة إلى التشابه الفطري بالاعتزاز بالقومية والتعصب لها، بالإضافة إلى ركاكة الدين والعقيدة، مع احترام القوة والاعتداد بها، وظل الدين تقليدا لا تأثير له في الحياة. كم تميز الروم بحب الاستعمار والسطرة على الأمم الأخرى التي كانوا يرونها أدنى منهم.

الانحطاط الخلقي في الجمهورية الرومية:

عبد الرومان القوة وغرقوا في مظاهر المتع والملذات والشهوات وكانوا يرون أن الدنيا إنما هي فرصة للتمتع واللذة فنزلوا إلى أحط الدركات في الأخلاق والانخلال الديني.

تنصر الروم:

وذلك بجلوس قسطنطين سنة ٣٠٥م فتحولت تلك الأراضي المترامية إلى المسيحية.

خسارة النصرانية في دولتها:

ربحت النصرانية الأرض وخسرت الدين وامتزجت مع الوثنية وتآلفت معها فأضحت ديانة ممسوخة بعكس الإسلام الذي يسود باقتلاع الوثنية.

الرهبانية العاتية:

ونتيجة لامتزاج الوثنية بالنصرانية تم ابتداع الرهبانية وظهر أعداد هائلة من الرهبان وقوي نفوذهم.

عجائب الرهبان:

انتشر تعذيب الجسد كمثلا للنقاء بالنسبة للرهبان وفي سبيل ذلك فعلوا الأعاجيب فمنهم من نام في مستنقع قذر، ومنهم لم يغسل قدميه أبدا، ومنهم من يحمل الحديد دائما ومنهم من يقوم على رجل واحدة، ومنهم من يغطي جسمه بشعره ولا يلبس الثياب.

تأثير الرهبان في أخلاق الأوروبيين:

كان تأثير هذه الرهبانية المبتدعة قسوة في القلوب وانهيارا لدعائم الحياة الأسرية.

عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة:

رسالة الأنبياء هي تكميل الفطرة وتنقيحها وليس تبديلها، ولذلك فشلت هذه الرهبانية البدعية بتكاليفها التي لايتحملها بشر في تقويم سلوك الناس، بل كانوا مشغولين بأنفسهم في الصحاري بينما كان الناس في المدن غارقين في الملذات والشهوات.

بين الرهبانية العاتية والمادية الجامحة:

تأرجح العالم بين مغالاة في الرهبانية، ومغالاة في الفجور والخلاعة، وجمع نفس المكان بين أكبر الزهاد، وأكثر الناس فجرا ومجونا.

الفساد في المراكز الدينية:

ولأن الرهبانية هي ضد الفطرة فقد تحول رجال الدين والباباوات إلى كائنات جشعة نهمة لا هم لها سوى المال والتبذير وباعوا للناس الجنة والغفران بصكوك وعقود.

تنافس البابوية والإمبراطورية:

ظلت المنافسة سجالا بينهم فتارة تعلو البابوية وتذل الإمبراطور نفسه وتارة تعلو الإمبراطورية والناس يرضخون تحت نيرانهما.

شقاء أوروبا برجال الدين:

استغلوا نفوذهم وجاههم وظل السكان بلا زيادة نتيجة تزيين حياة العزوبية للناس كما انتشرت الأمراض نتيجة إبعادهم للأطباء.

جناية رجال الدين على الكتب الدينية:

أدخلوا العلوم الطبيعية التي هي في الأصل متغيرة ومتجددة في الكتب الدينية المفترض لها الثبات كما أدمجوا فيها بعض العلوم الجغرافية والتاريخية.

اضطهاد الكنيسة للعلم:

عندما بدأت الثورة العلمية وتعارض العلم مع أراء الكنيسة قامت الكنيسة بثورة ضد العلماء وأنشأت محاكم التفتيش وأحرقت العلماء والناس أحياء.

ثورة رجال التجديد:

نتيجة لتعارض الكنيسة مع العلم ثار المجددون ضد المسيحية وضد الدين بشكل عام وتبنوا رأيا يقول بأن العلم والدين ضدان لايجتمعان.

تقصير الثائرين وعدم تثبتهم:

نتيجة عدم الحرص على الحق منهم، واحتكار رجال الدين لزعماته، وضعف العالم الإسلامي، والتبشير بالإسلام بأوروبا حرم هؤلاء من منهج عظيم كان بمثابة الترياق للسم الذي أصابهم.

اتجاه الغرب إلى المادية:

نتيجة لهذا العداء العلمي مع الدين اتجهت أوروبا إلى المادية وتفسير كل شئ في الكون بطريقة علمية تجريدية ونظروا بسخرية شديدة إلى الدين.

افتضاح المادية في الدور الأخير:

ومع أن النهضة الأوربية ظلت محتفظة ببعض من صور الدين لأسباب خلقية واجتماعية إلا أنهم في النهاية لم يستطيعوا مسايرة الاثنين خاصة بهذا الدين الجامد فألقوا آخر ستار من الدين كانوا يستترون به.

جنود المادية ودعاتها:

انتشرت الدعوات المادية للناس من كل اتجاه ودعوا إلى فصل الدين عن السياسة مثل ميكافيلي الذي قال بأن الأمراء والملوك مثلا يجب أن يتحلوا بأخلاق

الثعالب ولا يستحون من نقض العهود مادام للدولة مصلحة في ذلك ، ونتيجة تلك الدعوات انتشرت ثقافة الشهوات والملذات الآتية.

نسخة صادقة من الحضارة اليونانية:

نتيجة تلك العوامل أصبحت أوروبا نسخة ثانية من الحضارتين اليونانية والرومية بوثنيتهما وجاهليتهما.

ديانة أوروبا اليوم المادية لا النصرانية:

على اختلاف ميول الناس في أوروبا من اشتراكية إلى فاشية آنذاك فديانتهم الأساسية كانت المادية والنفع المادي وقد اختصر الوضع في أوروبا صحفي أمريكي شهير قائلا: إن الإنجليز يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة.

مظاهر الطبيعة في أوروبا:

أصبحت الطبيعة الأوربية في أشد حالاتها مادية، وأضحوا لا يؤمنوا سوى الملذات الوقتية، حتى في أحلك الظروف كأوقات الحروب والمصائب لاتجدهم تخلوا عن مراقصهم وأوكار لذتهم بل يلجأون اليها، ولا يشغلون أنفسهم قط بالتقرب إلى الله أو الدعاء له.

الغايات المادية للحركات الروحية العلمية:

حتى بعض النزعات الروحية التي انتشرت في الزمن الأخير في أوروبا وإنما جاءت من باعث المادية والترفيه كاستحضار أرواح الموتى والاطلاع على أسرار الروح قربا لله وخشوعا له، وأضحت كل تضحية يراد بها السمعة والانتشار وليس ابتغاء مرضاة الله.

التصوف المادي الغربي ووحدة الوجود الاقتصادي:

بنى كل المفكرين الأوربيين نظرياتهم على المادية فمثلا كارل ماركس مؤسس الفلسفة الشيوعية بنى نظرياته كلها على أساس اقتصادي وحرب الطبقات وأنكر مؤثرات الدين والعاطفة والفنون وحتى العقل واستنتج أن جميع الحروب قامت على أساس اقتصادي ، ويبدوا أنه لم يسمع بـــ(بدر) ولا (الأحزاب) ولا (القادسية) مثلا.

نظرية دارون وتأثيرها في الأفكار والحضارة:

جاءت هذه النظرية لتكمل الصورة المادية وتأصلها وهي النظرية القائلة بالنشوء والارتقاء وإنما جاء الإنسان بالارتقاء والانتخاب الطبيعي، وانتقل من طور الأميبا مرورا بطور القرد وصولا للإنسان وأن الكون إنما يسير دون أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية وهذا يعني عدم وجود عناية إلهية تدير أموره ،ونتيجة النزعة المادية اضطرب رجال الدين وخشوا من هذه النظرية التي أضحت دينا جديدا.

إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء:

بالطبع قبل الناس هذه النظرية نتيجة وجود أرضية مادية خصبة عندهم بالرغم من متناقضاتها، وهزمت الكنيسة، وكان من آثار هذه النظرية نزوع الناس إلى الحياة الأولية البهيمية.

من جنايات المادية:

جنايات المادية مستمرة حتى الآن فنرى كبار الساسة يرتكبون أفظع الجرائم بدون أي وازع أخلاقي أو ديني، حتى لو أدى هذا إلى مقتل ألوف الناس جوعا أو قتلا أو إنشاء كيان صهيوني مسخ لجلب تأييدا سياسيا أو محاصرة شعب وتجويع أهله.

الفصل الثاني: الجنسية والوطنية في أوروبا

انكسار الكنيسة الاتينية سبب قوة العصبية والقومية الوطنية:

بالرغم من تحريف المسيحية إلا أن بقايا مسحة من تعاليم المسيح منها عدم التفريق بين الأجناس والألوان، فلذلك جمعت النصرانية الأوربيين تحت لواء واحد بالرغم من طبيعتهم ذات النزعة العصبية القومية، لذلك فعندما سقطت الكنيسة الاتينية انفرط عقد أوروبا، وقويت العصبية القومية والوطنية.

طوائف العصبية الجنسية في أوروبا:

توجهت العصبية الأوربية نحو الشرق ووجدت أن جنسها خلق ليسود ويحكم وأن الآخرين إنما خلقوا ليخضعوا لهم، ووصل الأمر إلى نشوء طائفة ألمانية تتبرأ من المسيح كونه من بني إسرائيل وليس ألمانيا، كما اجتهد الروس لاثبات أن كل اختراع هو في الأصل روسي.

عدوى الجنسية في الأقطار العربية:

ومن المؤسف أن تلك العدوى انتشرت في بعض الأقطار العربية مثل تركيا التي نشأت بها بعض الطوائف التي تتبرأ من الإسلام كونه قادما من العرب وطوائف تقول بأنهم شعب واحد هم والجنس المغولي، وتمتدح جنكيز خان وكل أعماله ولا تنكر أيا منها، وأنهم أتراك أولا ومسلمون ثانيا (أعتقد أن المؤلف كان سيسقط مغشيا عليه إذا سمع كلام العرب الجدد)، كما حدث الأمر عند الفرس أيضا وبحث بعضهم عن أديانهم القديمة.

الديانة القومية الأوروبية وأركانها:

لا يمكن لشعب أن يؤمن بالقومية ثم لايتطأول ولا يعتدي ولذلك أضحت دماء الأخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم حلال عليهم وأن الله – لو اعترفوا به – فإنه لم يخلق أحسن ولا أكرم منهم.

الحل الإسلامي لمعضلة الحرب والمناقشات الشعوبية:

لنا أن نعرف أن عدد المقتولين من المسلمين والكفارفي جميع الغزوات والسرايا من السنة الثانية للسنة التاسعة من الهجرة (١٠١٨) بينما عدد قتلى الحرب العالمية سبع ملايين قتيل وأربعة عشر مليون مصاب، ذلك لأن الإسلام أظهر الأعداء الحقيقيين الذين يجب أن يقاتلهم العالم جميعا بدلا من قتل بعضهم وهم أولياء الشيطان.

فحروب المسلمين حاقنة للدماء، حافظة للأموال، وسبب لسعادة العالم. أما حروب التنافس الجاهلية فهي سبب لحروب طويلة غير منتهية، وقد كان من عظمة النبي ومنهجة. أن وحد بين قبائل الحرب المتناحرين وأجناس العالم أجمع على حرب معسكر واحد هو معسكر الكفر والجاهلية.

دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة:

دعاة القومية في تلك الدول أدت إلى إصابتها بالغرور أحيانا وتحرشها بدول كبيرة فتذهب ضحية تلك الدعاوي الزائفة.

مطامح الدول الكبرى:

وأدت هذه الدعاوى أيضا إلى تنافس الدول الكبرى في السيطرة على أكبر مساحات ممكنة وبناء المستعمرات في كل مكان.

منافسة الشعوب في المستعمرات والأسواق:

قد تقوم إحدى الدول بالحرب والاعتداء بحجة مناصرة المظلوم ولكنها في الأصل تنافس للسيادة والتملك (وما أفعال أمريكا الآن علينا ببعيد).

الفرق بين حكم الهداية وحكم الجباية:

حكومة الهداية تمنع الخلاعة والخمور والربا وإن كان فيه نفع للفرض ولها فهو خسارة للمجتمع، وحكومات الجباية تسمح بالخلاعة والفجور والبغاء مادام يؤمن مصالحها.

الفصل الثالث: أوروبا إلى الانتحار

عصر الاكتشاف والاختراع:

لايكابر أحد على فضل الأوربيين في الاكتشافات والاختراعات التي يتميز بها هذا العصر، وبالرغم من ذلك فان هذه الاختراعات ليست غاية في حد ذاتها بل وسيلة لغايات قد تكون خيره وقد تكون شريرة.

الغاية من الصناعات والمخترعات، وموقف الإسلام منها:

وهي تسخير الموارد من حولنا في نفع وخير الإنسان ونشر الدين وإظهاره على الدين كله.

إنما طائركم معكم:

الاختراعات وسيلة في يد الإنسان فإما يستخدمه في منافع أو أضرار كالنار تستعمل في الطهي وأيضا في إحراق المنازل فالعبرة بمن يستخدم هذه الوسائل وليس في ذاتها.

التخليط بين الوسائط والغايات:

افتتن الأوربيون بالاختراعات وجعلوها غاية في حد ذاتها واعتقدوا أنها ستريحهم واستعملوها في بسط النفوذ والاستئثار بخيرات الناس ومواردهم.

عدم تعادل القوة والأخلاق في أوروبا:

علت القوة عن الدين والأخلاق كثيرا في أوروبا حتى أضحت مثل السفيه الممسك بزمام الأمور.

قوة الآلهة وعقل الأطفال:

رغم القوة الهائلة التي منحتها هذه الاختراعات لأوروبا إلا أنها لم تزد إلا أعداد القتلى والفقراء والمشردين في العالم.

ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم:

وماالجدوى من زيادة الابتكارات والاكتشافات إذا ظلت عديمة الجدوى تضر أكثر مما تنفع.

أوروبا في الانتحار:

تحولت الاختراعات إلى وسائل للإهلاك وباتوا يصرفون الملايين للوقاية من هذه الاختراعات.

القنبلة الذرية وفظائعها:

شاهد العالم كله هذه الفظائع في هيروشيما ونجازاكي والذي أتبعها اختراع القنبلة الهيدروجينية والتي يكفي أربعة منها لقتل كل سكان العالم (وماذا لو أتاه رحمه الله نبأ الفسفور الأبيض وما أحدثه في غزة والقنابل العنقودية).

والذي خبث لا يخرج إلى نكدا:

أثمرت بذرة المادية والإلحاد في أوروبا عن شجرة خبيثة حسنة الشكل حلوة الثمار ولكنها سأمة مليئة بالأشواك، فضاقوا بها ذرعا وباتت خرقاتها أكبر من أن ترقع، وأصبحوا يطلبون العلاج ولكنهم لا يعلمونه ولا يعلمون مكانه.

الفصل الرابع: رزايا الإنسان المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي

بطلان الحاسة الدينية:

كان الشرقيون يتوارثون التفكير والقلق من الحياة الأخرى والحساب مهما مر بهم من أوقات لهو أو نسيان لم يكونوا ليغفلوا عنها فكانت بمثابة حاسة سادسة قام بتعطيلها الأوروبيون.

ما لجرح بميت ايلام:

كانت أشد العقبات التي تواجه الأنبياء والرسل هم هؤلاء الذين فقدوا الحاسة الدينية، وقد حالت الحياة المادية في أوروبا بين الناس وهذه الحاسة فأصبح المرض أكبر من أن يعالج، فهذه الأجيال لا يدور بصدورها الأسئلة والاستفسارات الدينية أصلا ولا يعيرونها اهتماما.

زوال العاطفة الدينية:

رغم الابتعاد عن الدين والغفلة في كثير من الأحيان إلى أن العاطفة الدينية كانت ماتزال قوية عند الناس وكان بعض العلماء يمشي وراءهم الآلاف ويستمع إلى خطبهم أعداد غفيرة ويتوب على أيديهم المئات والآلاف، إلا أنه بعد الاستعمار الأوروبي، وتسلل العقلية الأوروبية إلى أهل البلاد المسلمة زالت هذه العاطفة وطغت المادية على كل العالم.

طغيان المادة والمعدة:

تسلط على الناس الجشع والنهم وأصبح همهم الشبع من الدنيا، وظهر أهل الثراء والاحتكار وتزاحمت الأسواق بالسلع والمغريات، معظمها ليست ضرورية بل نموذج للاستغلال الصناعي وتحولت الكماليات إلى ضروريات.

التدهور في الأخلاق والمجتمع:

بعد الاحتلال الأجنبي للشرق الإسلامي ظهر الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي، ومع ذلك لا يزال يحتفظ ببعض المبادئ والأخلاقيات الغير موجودة في أي أمة، وتتميز الروابط الأسرية بقوتها عن مثيلاتها الغربية،كما كان الضمير مثل الشرف والعرض لا مساومة عليه، وإن كانت التأثير الغربي قد أظهر تأثيرا لدى البعض فقد نجد كاتبا مثقفا يكتب عن تاريخ أحد المجاهدين ثم وبنفس القلم يكتب مدحا في خائن أو محتل، وبدأ المجتمع يسير تدريجيا باتجاه الاستغناء عن هذه الروابط.

الفصل الخامس

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول: نهضة العالم الإسلامي

اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية:

للأسباب التي ذكرت سابقا تحولت أوروبا إلى كيان جاهلي مادي وأصبحت عبارة عن قوة غاشمة لإهلاك الحرث والنسل، وأصبح العالم الإسلامي بعد تخليه عن القيادة لايملك من أمره شيئا، مغلوب على أمره ينقاد بانصياع للربان الأوروبي.

استيلاء الفلسفة الأوروبية على العالم:

دانت الأمم لهذا الفكر الجاهلي المادي المنحرف فلا تجد له معارضة تذكر، وأصبح التنافس فقط على القيادة مع تشابه الأفكار، وروسيا الشيوعية ماهي إلا ثمرة هذا الفكر وإن سارت بصورة أوضح وأسرع إلى الإلحاد والإباحية بدون مواربة.

الشعوب والدول الآسيوية:

تشربت هذه الدول والشعوب حتى الثمالة من كأس الجاهلية المادية الغربية بعد استعمارها من قبل أوروبا، حتى بعد زوال الاحتلالات انقلبت هذه الدول إلى مرتع لقتل الأبرياء والأقليات والمستضعفين وحدثت فظائع غير مسبوقة ووقعت الشعوب بين الاستغلال السياسي لحكوماتها والتجاري للمحتكرين الذي رفعوا الأسعار وأثقلوا كاهل الناس، وفشلت كل المحاولات لبث روح الأخلاق والدين مرة أخرى، وانضموا إلى العالم شرقه وغربه وشاركوه أزمته الروحية والخلقية والاجتماعية.

الحل الوحيد للأزمة العالمية:

(الإسلام هو الحل) نقلت القيادة من أوروبا إلى أمريكا فلم يتغير شئ من السياسات والاحتلالات والقتل والتدمير ولو نقلت إلى روسيا أو الصين فلن يتغير شيئ أيضا، لأنهم كلهم وجوه كثيرة لعملة واحدة، لافرق بينهم، والحل هو التحول إلى المنهج الإسلامي والقيادة الراشدة على منهاج النبي القائد صلى الله عليه وسلم، فواجب على العالم الإسلامي وعلى كل مسلم أن يبذل جهده ونفسه في سبيل هذه المهمة التي نيطت بنا.

العالم الإسلامي على اثر أوروبا:

أصبح المسلمون في معظم عواصمهم حلفاء للجاهلية الأوروبية بل جندا وأتباعا وأذنابا وبدلا من أن يكونوا قادة للجيش الإسلامي أصبحوا خداما لجنود جيوشهم، كما سرى في المجتمعات التهافت على الشهوات، وتغييب المبادئ والأخلاق، كما خضع الناس لملوكهم وأمرائهم ورجال حكوماتهم، وقدسوهم متشبهين بالأمم الوثنية.

المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل:

على ما أصاب المسلمين من وهن وضعف فهم يظلون دائما خصما للأمم الغربية والمنافسين له في القيادة، والأمم الغربية غير غافلة عن هذا لذلك فهي تبذل دائما ما في وسعها ليظل هذا الدين ومنهجه التطبيقي بعيدا عن أهله (ونرى اليوم محاربة لكل مظاهر الإسلام والهجمة الشرسة التي يتعرض لها حجاب المسلمة).

رسالة العالم الإسلامي:

لا تزال هي الرسالة نفسها التي حملها المسلمون الأوائل ولخصها رسولهم ليزدجرد ملك إيران قائلا (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

الاستعداد الروحي:

خسر العالم الإسلامي أهم اسلحته وهي القوة الروحية والمعنوية، فكم رأينا أحداثا جساما كان يتوقع أن يشتعل لها المسلمون غضبا وينفجرون في وجوه أعدائهم ،فاذا رد فعلهم هزيلا باردا، ولن يعودو المسلمين وينتصروا وهم يهتدون بخطى أوروبا بل كما قال عمر رضي الله عنه (نحن قوما أعزنا الله بالإسلام فان ابتغينا العزة في غيره أزلنا الله).

الاستعداد الصناعي والحربي:

إذا أراد المسلمون أن يملكوا قيادة العالم فعليهم بالاستغناء عن الغرب وصناعة أسلحتهم واستخراج كنوزهم بأنفسهم وإدارة بلادهم برجالهم وليس بعملاء الأعداء، يجب أن يصدروا أكثر مما يستوردوا، أما أن نكون خاضعين للغرب يمتصون دمائنا ويستخرجون بترولنا وكنوزنا، ونستعين بخبرائهم في كل المجالات، ويعطونا بواقي أسلحتهم، فهذا يعني خضوعا لنا وتسيدا لهم.

تبوء الزعامة في العالم والتحقيق:

ترك العالم الإسلامي والعربي موقعه، وفقد استقلاله الفكري، وترك مجالات االبحث للمستشرقين وكثير منهم يضمرون للإسلام ونبيه الشر، فحرفوا الكلام، وبثوا دعايتهم في العالم الإسلامي، فأثمرت عن الدعوة بفصل الدين عن السياسة وأنه قضية شخصية، وقد رأينا كيف تحمس بعضهم للشيوعية، وبعضهم للرأسمالية، وبعضهم أراد أن نكون صورة للغرب في كل شئ.

التنظيم العلمي الجديد:

قديما ساد العالم الإسلامي على الغربي بثقافته وكانت الكتب المهمة في ايران وافغانستان والهند لاتؤلف إلا بالعربية، وعندما دخلت الثقافة الغربية في تعليمنا حدث خلل في الأذهان فنشأت طبقة مثقفة منافقة يملأ كلامها الشك.

واذا أراد العالم الإسلامي التحرر من عبوديته فلا بد له من الاستقلال التعليمي، وتشبيع علوم العصر بروح الإسلام، وعليه أن يكافح ويجتهد في كل المجالات فليست القيادة بالأمر الهين.

الفصل الثاني: زعامة العالم العربي

أهمية العالم العربي:

للعالم العربي أهمية كبيرة حيث كانت لأممه أدوار هأمة في التاريخ الإنساني، كما أنه مخزن للثروات والموارد، وعلى رأسها البترول وهو روح العالم الإسلامي وقلبه، ولذلك كان دائما مطمع وتنافس بالنسبة للغرب.

محمد رسول الله روح العالم العربي:

أبرز النبي صلى الله عليه وسلم العالم العربي للوجود بعد أن كان قبائل وشعوبا متناحرة، وقد سيطر الأمم على بلدانها مثل مصر وسوريا والعراق ينهبون ثرواتها ويستعبدون أهلها، ولولا النبي صلى الله عليه وسلم لما كانت هذه الدول موجودة أصلا، ولما وصلت الحضارة الإنسانية إلى ما هي عليه. وأضحى العالم العربي بمثابة معهد الإسلام وقبلته للعالم الإسلامي، وحكام العرب الذين تركوا نهج النبي واستمدوا منهجهم من الغرب فليرجعوا بلادهم إلى الحكم الروماني والإيراني، ماداموا قد زهدوا في هذا المنهج الذي حررهم من الظلم وأقام لهم هذه الدول.

الإيمان هو قوة العالم العربي:

الإسلام هو قومية العالم العربي والنبي صلى الله عليه وسلم هو قائده وزعيمه، بهذا المفهوم انتصر العالم العربي وقهر أعداءه وبهذا المفهوم والرجوع اليه سيعود لهم انتصاراتهم وقوتهم ولن يستطيعوا الانتصار بقلب يحب الحياة ويكره الموت وجسد أدمن الراحة، بل بقلب مجاهد ونفس تواقة إلى الاستشهاد.

تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية:

كانت المهمة العظيمة التي بعث من أجلها محمد صلى الله عليه وسلم تحتاج إلى رجال قد باعوا الدنيا ورضوا لأنفسهم الخطر على حياتهم وأموالهم، وبتضحية هؤلاء الرجال تنعم الإنسانية وتسعد الأمم، وقد كان أسوتنا صلى الله عليه وسلم أول من جاهد وآثر دعوته على كل ما يعيقها وعزف عن الشهوات ومطامع الدنيا، واقتاد العرب الأولون به فكانوا أكثر الأمم خسارة للنفس والمال في سبيل جهادهم ودعوتهم، وإيصال رسالتهم لسعادة البشرية، ولن ينعم البشر بالسعادة ولن تصل إليهم تلك الرسالة الخالدة، إلا على أجساد الشباب المسلم الذين يضحون بمطامعهم الفردية، في سبيل إعلاء الإسلام وتغيير طريق البشرية من النار إلى طريق الجنة.

العناية بالفروسية والحياة العسكرية:

كان العرب أهل فروسية وجلد، وكان معروفا عنهم الخصائص العسكرية، ولكنهم أهملوا هذا الجانب الهام فتشأت أجساد هزيلة ضعيفة لا تعرف سوى الراحة، كما انتشر الأدب المخنث والصحافة الماجنة فأخرج شبابا مخنثا منافقا، ولذلك وجب محاربة هذه الأسباب، وتربية الشباب على الجلد والصبر وخشونة المعيشة.

محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغني والصعلوك:

زادت الفجوة ومازالت تزيد بين الفقراء والأغنياء نتيجة الموروثات الغربية فتجد في عالمنا العربي مظاهر البذخ الفاحش جنبا إلى جنب مع مظاهر الفقر المدقع المهلك، وترى القصور الفخمة والمواكب للأغنياء والحكام فيما تدمع العين لمظاهر فقر وجوع غير معقول، ومادام هذا الفرق الكبير موجودا فالباب مفتوح للاضطرابات والقلق والأحقاد بين أفراد المجتمع.

التخلص من أنواع الأثرة:

جاءت أوقات من التاريخ (وتاريخنا الحاضر خير شاهد) كانت الدولة تدور حول شخص واحد هو الملك والرئيس، لأجله تؤلف الأغاني وله ينسب كل فضل، فالأمة تعمل وتنتج ثم ينسب له هذا العمل، وقد يعيش الشعب هانئا بالفتات سعيدا بها (نراها في كثير من الدول العربية) وقد تحرم حتى من هذه الفتات فتصبر، هذا الوضع هو المسئول عن مانحن فيه من نبذ أهل النبوغ والأمانة والاجتهاد، وعلو المنحطين فاقدي الضمير متخلفي العقول، وعار على أي شعب أن يرضى بذلك فضلا على إطرائه الملك على فتاته التي يلقيها لهم، والأثرة قد تكون أيضا حزب من الأحزاب، أو طبقة من الطبقات كما نرى في كثير من الدول الغربية، وواجب على الأمة أن تتخلص من هذه الأثرة أيا كان نوعها.

إيجاد الوعي في الأمة:

إن من أخطر الأمور على الأمة هي فقدان الوعي وسكوتها على الضيم، وعدم قدرتها على التمييزبين الصديق والعدو، وأن تلدغ من كل جحر عدة مرات، وأن تضع ثقتها في حكام أضاعوا الأمانة، وأن يأمن حكامها الخونة من سخط الأمة وحسابها، فيتمادون في خيانتهم واثقين من بلاهة الأمة وسذاجة الشعب وانعدام وعيه، وللأسف فإن شعوبنا العربية فاقدة للوعي، بعكس الأمم الغربية التي رغم عيوبها الطويلة التي ذكرت، فعندها من الوعي ما يجعلها تفرق بين النافع والضار، وجعلها تسقط الخونة وتولي الأكفاء الأقوياء، ولذلك من أهم متطلبات الأمة ايجاد تربية عقلية مدنية سياسية، وتحسين التعليم والقضاء على الأمية، وإذا ارتاح الزعماء لغياب وعي الأمة وتقديسها لهم فغياب هذا الوعي يجعلهم عرضا للتأثر بأي دعاية كريشة تلعب بها الرياح.

استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها:

وكما سبق في الكلام عن العالم الإسلامي أنه من المهم أن تحقق الدول العربية الكفاية في الانتاج وتلبس وتأكل من صنع يدها وتستخرج معادنها وثرواتها بنفسها وتستغني عن الغرب وتحقق الاكتفاء، وتمنعه من استغلاله ومص دمائه، إذا أرادت أن تتصدى له.

تقدم مصر في ميدان التجارة والصناعة والعلم:

ظهر في مصر استعداد كبير في ميدان العلم والصناعة وتربية الرجال ونشر الثقافة ونقل العلوم إلى اللغة العربية وعنايتها بالصناعة الوطنية وتنظيم شئون الدولة على أساس العلم.

رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي:

أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي (بالفعل والأعمال لا بالقول).

إلى قمة القبلة العلمية:

أخرج الإسلام العرب من ضيق الحياة وتناحرها وذلها وتفكيرها ومن ضيق جزيرتهم إلى عالم من السيادة في كل المجالات وعلى رأسها السيادة الروحية، وكونوا مع شعوب العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ تنصهر فيها الثقافات والعبقريات لتكوين الثقافة الإسلامية، وأخرجت للعالم نوابغ لا حصر لهم، وصارت لغة العرب هي لغة التأليف والابداع والثقافات، وكانت حضارتهم هي الحضارة التي يفتخر الناس بتقليدها، ومكث الناس في ظل حضارتهم فلم يفكروا بالثورة عليها بل ثار العرب على أنفسهم وحضارتهم.

ومازال الطريق مفتوحا أمام العرب وسيظل، وهو طريق مجرب منذ العهد الأول "الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها وتنبيها والتفاني في سبيلها وتفضيل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة".

فإلى متى سيظل العرب يضيعون قوتهم الجبارة في الميادين الضيقة المحدودة.

إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته.

فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد وتفانوا في سبيلها وجاهدوا فيها {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}.

تحليل موجز للكتاب

بدأ العلأمة أبو الحسن علي الندوي رحلته التاليفية بكتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمن" وبالرغم من هذا تعد هذه الباكورة لإنتاجه من أروع الأعمال التي صدرت حتى الآن من قلم المفكر الكبير العلأمة الندوي المغفور له وقد عقد العلأمة العزم على تأليف هذا الكتاب في زمن لم يتجاوز عمره فيه الثلاثين إلا ببضع سنوات وفي ظروف لم تكن مواتية للتركيز على موضوع يتقاض سكون القلب وراحة الفكر وهدوء البال وبمناسبة هذا المكان تجدر الاشارة إلى أن تاليف هذا الكتاب قد اكتمل في عام ١٩٤٥م وكل من له أدنى إلمام بتاريخ الهند الحديث يعرف جيدا مدى توتر الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية في تلك الحقبة من الزمن إذ كانت الزعامات الوطنية والقيادات الإسلامية في شبه القارة الهندية حينذاك منقسمة أشد الانقسام وتلك بخصوص تولى مقاليد السلطة بعد انسحاب الانجليز من البلاد، وبلغ السيل الزبى عندما انقسم المسلمون حول هذه القضية إلى طائفتين كبيرتين فطائفة منهم كانت تطالب بإقأمة دولة إسلامية في شبه القارة الهندية منفصلة عن الحكومة الهندية ذات الطابع الهندوسي وكان يتزعم هذه الطائفة محمد علي جناح

العلماء المرموقين تدعو المسلمين إلى صبغة سياسية بناءة يمكن باتخاذها قبول شرعية الحكومة الهندية ذات السيادة العلمانية (الهندوسية).

هذا الانشقاق والانقسام بين صفوف المسلمين قد أثار الشك في أذهان الناس حول مصداقية التعاليم الإسلامية التي انصهرت في بوتقتها من قبل معالم الجنسية والوطنية والقومية والعرقية، والتي قد جمعت في القرون الماضية مللا عديدة وشعوبا مختلفة على رصيف واحد فبالرغم من هذه الخصيصة البارزة للإسلام لماذا وكيف تسربت التفرقة والانفكاك في داخل المجتمع الإسلامي، وهذا السؤال المهم كان في الحقيقة شغلا شاغلا لكثير من الكتاب والباحثين في حين ألف العلأمة الندوي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، وكلما إراد هؤلاء الكتاب والباحثون استئصال شافة هذا الانفكاك توسعت هوة الصراع بين أبناء الإسلام حتى بدأ الناس – ومن بينهم كثير من المسلمين – يشككون في قدرة الإسلام على مواصلة السير مع تقديم الزمان، كما أخذوا يعتقدون بأن الإسلام لم يبق صالحا لقيادة البشرية جمعاء، ولأجل هذا السبب أجبر المسلمون على إخلاء الطريق للشعوب الأخرى وعلى التنحى عن الجلوس في الموقع الريادي، وهذا الفكر الخاطئ قد ترك آثارا سيئة وسلبية على أذهان النشء الجديد من المسلمين، فما برح هؤلاء الشبان حتى بدأوا يعكفون على الأيدولوجيات العصرية الأخرى من أمثال العلمانية والشيوعية والديموقراطية وما هو على شاكلتها ويعتنقونها.

لقد أدرك خطورة هذا الاتجاه الفتاك كل من له أدنى اهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين، وبذل بمقدوره جهودا لتدحيض الأفكار والنظريات المناوئة للتعاليم الإسلامية، والتي توافينا بأن الإسلام هو السبب الرئيسي وراء تخلف المسلمين، فما دام المسلمون متشبثين بديانتهم يكون دورهم هامشيا في مختلف المجالات للحياة الإنسانية، وبكلمة أخرى إن أراد المسلمون الاستعلاء والاستنهاض فعليهم الابتعاد عن القيم الإسلامية والمبادئ الدينية، ومن الملاحظ أن مثل هذه الأفكار سرعان

مابدأت تروج وتنتشر في داخل المجتمع الإسلامي، وفي عملية نشر هذه الأفكار لعب المتفرنجون من المسلمين دورا بارزا، وذلك لأنهم في أكثر الأحيان قد تربوا وتثقفوا على أيدي المستشرقين الذين لم تكن غايتهم إلا إثارة القلق والفتن بين صفوف المسلمين إلى جانب خلق الصدع في بنيان الإسلام، وإبراز مواطن الضعف والاضمحلال في تعاليم الدين الحنيف. فتحقيقا لهذا الهدف هؤلاء المستشرقون في بداية الأمر غربلوا تراث المسلمين الديني والعلمي والأدبي والثقافي ثم قاموا بتحقيقه ونشره بعد إلقاء نظرة فاحصة وأحيانا نقدية عليه ولكن عندما أدركوا أن جهودهم هذه ما أتت أكلها حسب تطلعاتهم وقرأوا منحا دراسية لبعض الطلبة النابهين من المسلمين للدراسة في الجامعات الأوربية، وعلى هذه الشاكلة أشبعوا أذهانهم بأيدولوجيات فاسدة هدفها الئيسي بث بذور الشكوك والشبهات حول التعاليم الإسلامية فهؤلاء الطلبة من المسلمين – مع بعض الاستثناءات – بعد الرجوع إلى أوطانهم، بذلوا قصارى الجهود لنشر أفكار أساتذتهم الأجانب في أوساط المجتمع الإسلامي، ومن الجدير بالذكر أن المستشرقين قد اتخذوا هذه الاسترتيجية المختلسة بعد فشلهم في الحروب الصليبية ونستشف هذه الفكرة مما أدرجه لويس التاسع في مذكراته قائلا:

"إن الحروب العسكرية لن تجدي مع المسلمين فتيلا ولابد أن يعول على الحرب العقائدية، ونربي من أبنائهم من يقوم بإفسادهم وتحولهم عنا ولامنا"[١].

ولاشك أن العالم المسحي الذي قد تكبد دائما خسائر فادحة على أيدي المسلمين الغزاة، نجح في هذه الموأمرة إلى حد كبير وإثارة زوبعة الارتباك والارتياب في قلوب الجيل الجديد من المسلمين تجاه المبادئ الإسلامية والقيم الدينية، ولم تلبث هذه الحالة حتى التفت إلى خطورتها العلماء والمفكرون المسلمون. وبعد تفكير عميق وصلوا إلى نتيجة أن الاستعباد الفكري أكثر فتكا من الاستعمار الغربي،

---

[١] جريدة العالم الإسلامي العدد ١٤٢١، ١١-١٧ سبتمبر ١٩٩٥م.

وإن لم تتخذ الإجراءات لمقاومة هذا الاستعباد الفكري ليصطبغ الكيان الإسلامي بصبغة الحضارة الغربية تماماً، وكان العلأمة أبو الحسن علي الندوي في طليعة هؤلاء المفكرين الذين يرتضون أن تكون الدول الإسلامية في مؤخرة الموكب الحضاري، ويملي عليها الاستعمار الغربي أوامره وأحكامه، ويندفع المسلمون مع التيارات الحديثية فلرفع الستار عن دسائس الكتلة المسيحية الغربية كتب هؤلاء المفكرون مقالات قيمة وكتبا عظيمة الفوائد، ومن بين هذه المؤلفات يحتل الكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" مكانة الصدارة لاستيعابه كليات الروح الإسلامية من جميع أطرافها، وقد أشار الأستاذ سيد قطب إلى ميزة الكتاب هذه قائلا:

"فإن الحصيصة البارزة في هذا الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل وهو لهذا لايعد نموذجا للبحث الديني والاجتماعي فحسب بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية"[١].

وفي الحقيقة أراد العلأمة الندوي بتأليف هذا الكتاب إعادة الروح إلى الكيان الإسلامي، وإعادة ثقة المسلمين بأنفسهم وبقديمهم الدينية والحضارية والأخلاقية، ولتحقيق هذا الهدف ألقى العلأمة المذكور نظرة بانورتامية على تاريخ الحضارة الإنسانية بأسرها، وذلك لكي يثبت جدارة الإسلام مقابل الديانات السماوية، وغير السماوية وفي هذا الصدد فإن مايسترعى اهتمامنا هو استقصاء العلأمة عن الحقائق الجذرية لمختلف الشعوب والأمم والديانات، ومما يبدو أنه قد تفحص أكثر المواد التاريخية المتضمنة المراحل التاريخية للحضارة الإغريقية والرومية والفارسية والصينية والعربية وما إليها، ومع هذا كله يشتكي العلأمة الندوي في مستهل الكتاب من قلة المواد العلمية والمراجع التاريخية قائلا:

---

[١] من مقدمة "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ص٣١.

والتوجيه والإرشاد فكان من الطبيعي أن يتأثر هو الآخر بهذه البيئة العلمية والأدبية والفكرية والدينية، وفوق كل ذلك لقد وهبه الله ذوقا مرهفا، وقلبا نابضا، وفكرا سليما، وعقلا واعيا، ونظرا ثاقبا، وقدرة فائقة على سبر الأغوار وكشف الأسرار فلم يزل يطالع الكتب أو يجالس بذلك منذ نعومة أظفاره لنشدان الحق والعلم والعرفة، وإعلاء كلمة الإسلام بين الناس، وقد ساعدته في هذا المضمار الظروف التي تبرعمت وتفتحت في وسطها مواهبه العلمية والفكرية والأدبية، ولهذه الأسباب كلها سرعان مابدأ يتفرك في العوامل والعناصر التي تلعب دورا حاسما في استنهاض وانتكاس أمة أو حضارة أو ديانة وهذا التفكر والتأمل قد أتاحا له فرصة للوقوف على أحوال الأمم الغابرة والحاضرة، وبما أنه كان خبيرا بلغات عديدة من أمثال العربية والإنجليزية والفارسية والأردية فكان من الأيسر له أن يستفيد من اللغة الإنجليزية. يكتب في مكان:

"إنني حصلت في مدة قريبة مادة لغوية استطعت أن انتفع بها في أعمالي التأليفية العلمية، وفي رحلاتي إلى انجلترا أو أمريكا، وقد تمكنت بهذه الدراسة أن أقرأ الكتب التي ألفت في الواضيع الإسلامية والتاريخ بالإنجليزية بسهولة، ولاأزال أستفيد بها وأنتفع"[١].

وخير دليل على صدق هذه الكلمات كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الذي استعرض فيه بإسهاب الأحوال السياسية والثقافية والاجتماعية والحضارية والأخلاقية للبشرية جمعاء، ووفق إلى قدر كبير في جعل باكورته هذه صورة مصغرة للعالم الإنساني تتبلور من خلالها الشعوب والأقوام المختلفة بخصائصها البارزة، فكل من يلقي نظرة غائرة على محتويات هذا الكتاب لايتأثر بغزارة علم المؤلف وسعة معلوماته فحسب بل يجد نفسه حائرا في متاهات التاريخ الإنساني آخذا منها الدروس والعبر ومستسلما للنتائج الإيجابية التي وصل إليها

---

[١] مجلة البعث الإسلامي (عدد ممتاز) المجلد الخامس والأربعون، محرم / صفر ١٤٢١هـ.

"وكانت المراجع العربية التي لابد لي من أن أستشيرها في هذا الموضوع قليلة، وذلك لأن ذلك العهد كان قريبا بالحرب العالمية الثانية، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية فكانت تستورد قليلا من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عأمة ومصر بصفة خاصة"[١].

يعني ذلك أن المواد التاريخية المطلوبة لمثل هذا العمل الجليل لم تكن متوفرة لديه، وبالرغم من هذا إنه شمر عن ساعده لإنجاز مشروعه العلمي، وجاء بكتاب يقول عنه الدكتور محمد يوسف موسى "إني – علم الله – لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتابا حوى من الخير ماحواه هذا الكتاب، ولا كتابا وضع أيدينا على مانشكو منه من أدواء وأمراض كما فعل هذا الكتاب، ولا كتابا نفذ كاتبه إلى روح الإسلام وأخلص ويخلص في الدعوة له ويقف كل جهوده على هذا السبيل كهذا الكتاب"[٢]. صحيح أن المراجع المطلوبة لمثل هذا العمل الرائع لم تكن متوفرة في الهند حسب رغبات العلأمة الندوي إلا أن نشأته وتربيته ومطالعته الواسعة كانت في الحقيقة تكفل له "مايستطعه الأوائل" وفي هذا السياق نلاحظه يقول:

"لقد أراد الله أن أنشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ وكتابة التراجم والسير، وأن أولد في أسرة كان فيها مؤرخون ومؤلفون، وكان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال وطبقات الشعراء والأدباء وسير العظماء من المصلحين والعلماء والملوك والأمراء"[٣].

فهذه الكلمات تدل على أن العلأمة الندوي شب وترعرع في أسرة كانت تتوسد العلم والمعرفة، وكانت ميزتها البارزة الدراسة والكتابة والبحث والتفكير

---

[١] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلأمة أبو الحسن الندوي ص١٣.

[٢] المرجع السابق ص٢٧.

[٣] شخصيات وكتب للأستاذ العلأمة أبو الحسن علي الندوي ص١٣.

المؤلف بعد الجهد الجهيد، ومن الجدير بالملاحظة أن العلأمة الندوي لم يستهل كتابه بذكر الصفات المشرقة للإسلام وكذلك لم يبد أي انحياز أو عصبية لإبراز المعالم الممتازة للحضارة الإسلامية بل إنه سرد الوقائع التاريخية بأسلوب منطقي وموضعي تتجلى فيه الحقيقة تباعا، ويتحلى بهذه الخصيصة المتميزة جميع أبواب الكتاب الخمسة فأقواله وآراؤه وأفكاره تتسرب إلى القلوب بدون مشقة وعناء، ومن هنا يمكن أن يصدق على كلامه القول "از دل خيزد بر دل ريزد" أي من القلب إلى القلب، ولا يتصف الكلام البشري بهذه الميزة مالم يكن الإنسان واضح الرؤية، صافي القلب، مخلص النية، صالح الفكر فهذه الصفات كلها تجمع في أسلوبه في حين هو يقوم بتحليل وتمحيص الأحداث التاريخية التي كانت بمثابة نقطة تحول في الحياة الإنسانية، وليس من شك أن رؤية العلأمة الندوي كانت واضحة تماما ولذا لايطيل كلامه بذكر العصور والأزمان فلا ينقسم التاريخ الإنساني عنده إلا إلى عصرين، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، وهذا التعريف الموجز للتاريخ الإنساني ينقذ من جانب المتلقى من تخبط الطريق وتشوش الفكر، ومن جانب آخر ينم عن وضوح فكر العلأمة الندوي فكان العلأمة لايرى للوجود الإنساني إلا قالبين منفصلين إما قالب الخير وإما قالب الشر فكل الأحداث الإنسانية تدور حول هاتين النقطتين ومشيرا إلى أفكار العلأمة هذه الأستاذ سيد قطب يقول:

"ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائما عن النكسة التي حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة "الجاهلية"، وهو تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام والروح المادي الذي سيطر على العالم قبله، ويسيطر اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة أنها الجاهلية في طبيعتها الأصلية"[١].

---

[١] من مقدمة "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ص٣١.

هذه الكلمات تنم عن أن العلأمة الندوي طالع وغربل تراث التاريخ الإسلامي من الزاوية الإسلامية البحتة، فكل ماوجده معارضا للمبادئ والقيم الإسلامية اعتبره عملا من أعمال الجاهلية التي لاتمثل إلا قوى الظلم والضلال والكفر والطغيان والعبودية والانحلال، ولهذه الجاهلية ليست فترة محددة من الزمن كما تزعم أغلبية المؤرخين والكتاب بحيث أنهم يعدون الفترة ماقبل الإسلام مختصة بالجاهلية إلا أن العلأمة الندوي لايوافق على هذا الرأي، ويذهب إلى أنه الجاهلية ليست محصورة في دائرة الزمان بل المراد منها استيلاء قوى الشر والعسف على مقاليد السلطة والسيادة دون تقيد بزمن مخصوص، فانطلاقا من هذه الفكرة كان العلأمة الندوي يعتبر عالم اليوم المتحضر نسخة مبهرجة للجاهلية الأولى، وذلك لأن القوافل البشرية في هذا الزمن قد تخطبت طريقها مرة أخرى فاندست قوائمها في أوحال المادية الجامحة التي غايتها الأولى هي التمتع بملذات الحياة وملاهيها، والابتعاد عن القيم الروحية الخلقية، والانغماس في تحقيق المطامح الدنيوية، وعدم الإيمان بخالق الكون وبالحياة بعد الموت، وفي رأي العلأمة الندوي كلما تتغلب هذه المادية على أطوار الحياة الإنسانية تختل موازين الحق والخير والعدل والإنصاف، وتتزعزع الأسس الاجتماعية والأخلاقية حتى تكاد تنهدم وبالنتيجة تتدهور أحوال الناس إلى أسوء حد.

في الزمن الماضي كان خالق الكون يرسل الأنبياء والرسل لهداية الإنسانية الحائرة إلى سبيل الرشد والسعادة، ولانتشالها من أخدود النار ووهدة الهلاك، ولكن هذه السلسلة انقطعت إلى الأبد بعد خاتم النبيين الذي ترك لنا كتابا لن يضل من يتخذ تعاليمه بالنواجذ، وشريعة تخرج اتباعها المخلصين من الظلمات إلى النور، كما تغدق عليهم السعادة والرفاهية في الدنيا والآخرة، ومادام المسلمون كانوا متشبثين بهذين المرجعين الأساسيين كانت تنعم الإنسانية كلها بالخير والسعادة لأنهم جاوؤا بـــ"مدنية فاضلة قوية البنيان ومحكمة الأساس يسود فيها روح التقوى والعفاف

والأمانة، وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه والروح فوق المظاهر الجوفاء يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى، ويهتم الإنسان بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة ويقل الناس في أسباب هذه الحياة والتكالب على حطام الدنيا ويقل التباغض والتشاحن"[١].

ما أحوج الإنسانية اليوم إلى رجال متصفين بالصفات المذكورة أعلاه، رجال يزهدون في الشهوات والملذات، ويعزفون عن شره الأموال والثروات، ويقومون بالقسط بين الناس، شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، ويعرضون حياتهم للخطر لقلع الفساد والشر من الجذور، رجال يأمرون الناس بالبر والتقوى وينهونهم عن المنكر والسيئات، ويوفون بالعهود والمواثيق ويتجنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم، ويستعدون دوما لوضع البلسم على الجروح الدامية للإنسانية فيستأنس بهم الأيتام والأرامل والمستضعفون والمنكوبون. ولامراء في أن هذه السجايا والمزايا مادامت تسود المجتمع الإنساني أحرز المسلمون قصب السبق في جميع ميادين الحياة، إذ كانوا خير أمة أخرجت للناس فالناس كانوا يؤثرونهم على أنفسهم في تدبير أمورهم وتنظيم شؤونهم، ولم يزل المسلمون يتمتعون بهذه الثقة من قبل الناس إلى أن تسرب إلى سويداء قلوبهم حب المال والجاه فارتاحوا إلى مفاسد الأرض ومساويها، وكانت نتيجة ذلك أنهم فقدوا المؤهلات اللازمة لقيادة الناس وهكذا تخلفوا عن جادة التقدم فلم يخسرهم أنفسهم فحسب بل الإنسانية كلها منيت بالخسران المبين بسبب خسرانهم وانحسارهم، وهذه هي الفكرة الرئيسة نستشفها مبثوثة في جميع أوراق "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

---

[١] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبو الحسن علي الندوي ص١٢٤.